النزعات الادبية

العامة قبل دستور ١٩٠٨

انيس الفرسي

استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

—٢—

﴿ البوادر الثورية الاصلاحية ﴾ رأينا فيما سبق ان « المثانية » كانت قبل الدستور بارزة في الشعر المصري عموماً . وفي كثير من الشعر العراقي والسوري واللبناني . على ان الشعر العربي لم يكن كله كذلك . فقد كان في الشرق العربي كما اسلفنا احرار يهاجمون الفساد ويحملون على السياسة الناشئة التي كانت تدفع بالبلاد الى هوّة الانحطاط . وابرز ما نرى ذلك في عهد مدحت باشا ابي الاحرار المثانيين . فانهُ لمّا تولى ولاية سورية ظهر في بيروت ودمشق حركة ادبية ترمي الى احياء الشعور القومي والتظلم من ضغط الاستانة . ولا ندري تماماً سرّ تلك الحركة أكان مبعثها كما يقول البعض مدحت باشا نفسه طمعاً بجعل سوريا كمصر والجلوس على اريكة الحكم فيها [1] ام لان وجود ذلك الحاكم النزوع الى الاصلاح انشأ في سوريا (كما انشأ من قبل في العراق) جوّاً ادبيًّا حرًّا استطاع به ابناء الضيم ومرهفو الاحساس ان يبثوا بعض خواطرهم ويفرّجوا عن كربتهم . ذلك ما تتركه للتحقيق التاريخي

وسواء أهذا صحّ أم ذاك فالواقع ان الادب العربي في ذلك العهد اخذ ينادي بالاصلاح وحملت الحماسة بعضهم على نشر قصائد نارية الصقوها (غفلاً من التوقيع) على ابواب المساجد والكنائس ومنها السينية المشهورة — دع مجلس القيد الاوائل ، والحائية — يادولة الترك اتركي عنك المزاد وبائري الاصلاحا — وستعود اليها في غير هذا المقام

وقد اعتمدت حكومة الاستانة بهذه البوادر الثورية واخذت تسعى لمعرفة اصحابها فلم تفز بطائل واقتضت السياسة نقل مدحت سنة ١٨٨٠ الى ازمير ثم محاكمته بتهمة قتل السلطان عبدالعزيز

(١) كتاب سر مملكة لسليم سركيس ص ٦٣

فتخلص عبد الحميد منهُ وبوقت قصير استطاع ان يبطش برجال الحرية والدستور وان يرجع بالبلاد الى عهد الاستبداد المطلق فهو بعد ان بدأ حكمه باعلان الدستور وبمجاراة والده عبد المجيد في طلب الاصلاح تكس على اعقابه وعاد كما يقول روحي الخالدي الى سياسة جدّه السلطان محمود خان في استعمال الجبر والاستبداد معتقداً ان الشعوب التي وضعها الله تحت يدي جلالته لا يمكن تسييرها الاَّ بالقوة »[1] فجمدت في أيامه الروح الاصلاحية داخل البلاد لكن بعض الاحرار من الترك والعرب حملوها الى الخارج وهناك نمت وترعرعت فكانت من العوامل الفعّالة في انقلاب الحكومة الحميدية . وفي هؤلاء الاحرار المهاجرين يقول المشير[2] « هم اخواننا في الانسانية ، ورفاقنا في الحرية . علموا ان المجد لا ينال الاَّ على جسر من التعب . فهم يتعبون في السعي وراء خدمة بلادهم وارجاع مجد مملكتهم الذي انحط الى دركات الخمول باهمال الامام الذي جار في أحكامه والاعوان الذين صاروا بلية على الامة » . . . الى أن يقول . . « وقد انضمَّ اليهم بعض أدباء سوريا ومصر وهرب البعض منهم من عالم الجور والظلم الى فضاء الحرية والامن فانتشروا في باريز وسويسرا وانكلترا وأميركا وأنشأوا الجرائد » الخ

فظهر من هؤلاء المهاجرين طبقة من حاملي شعلة الادب وأكثرهم الآن في عالم الارواح منهم فتح الله مراش — رزق الله حسون — عبد الرحمن الكواكبي — خليل غانم — محمد قدري — لويس صابونجي — امين نجيب ارسلان — حبيب مسلمي — خليل سعادة — سليم سركيس — نجيب الحداد — ولي الدين يكن . ولا يزال حيّاً من هذه الطبقة فارس نمر (الدكتور نمر باشا)

ومن أراد الاطلاع على بنات افكارهم فليرجع الى مؤلفاتهم (وأكثرها معروف) او الى صحفهم كالمشير والمقتطف ولسان العرب ومرآة الاحوال والمجلة وتركيا الفتاة والنحلة والشورى وضياء الخافقين ورجع الصدى وكشف النقاب وسواها[3] وكلهم كما يصرح الدكتور يعقوب صرُّوف قد اتحدوا على التنديد بالادارة السيئة الضاربة أطنابها في بلادهم[4]

على انهم في ذلك متفاوتون . فمنهم المشدّد ومنهم المعتدل . ومنهم من بلغ به فرط التشاؤم حدّ اليأس بالاصلاح فصار لا يرى اصلاحاً الاَّ بهدم كيان الدولة او وقوعها تحت مراقبة الاجانب . وأقدم ما رأيتُ من هذا القبيل قصيدة لرزق الله حسون نظمها في الحرب الروسية العثمانية واستيلاء الروس على القرص ومنها :[5]

كم حروبٍ للروس دارت على التـــرك رحاها فنادرتها طحينا

---

(١) الهلال ١٧ — ١٤٥ (٢) عدد ١١٣ (٣) في المشير والمجلول لولي الدين ص ٦٢ — ٧٤ وصف لبعض هذه الصحف وأصحابها فليراجع . (٤) المقتطف ٣٣ — ٨١٣

(٥) راجع القصيدة في المشير عدد ٣١ (وفي بعض أبياتها اضطراب في الوزن)

عَلَم الروس يخفق اليوم فوق الـــقرص ولّى الاتراك في الفارينا
هكذا هكذا تدور على البـــاغي الدوائر[1] ويهلك المجرمونا
ما عليهم لو عاملونا بحسنى وتساوٍ او انهم انصفونا

قال الدكتور فارس نمر باشا من خطبة له في النهضة الدستورية مشيراً الى فتح الله مرّاش ورزق الله حسّون[2] — « فهذان الحرّان الحليان اللذان فاقا الاقران بحب الحرية كما فاقا الاقران بمعانيها الحرية وبمبانيها السجدية قضيا ردحاً من الزمن يرسلان شعاع الحرّية الى ابناء سوريا من قلب أعظم عاصمتين اشتهرتا في اوروبا بالحرية والنظامات الدستورية (اي لندن وباريس) ولكنهما مزجا بلاغتهما بطلقم التفريق بين الترك والعرب فأصابا بايقاظ النفوس لطلب الحرية وأخطآ بتمزيق الجامعة السلطانية »

ويستدل من شعر حسون انهُ لجأ الى روسيا حيناً . ومدح قيصرها بقصيدة جعل القسم الاول منها وصفاً لفساد الاحوال في تركيا فقال : —

جُلت الشآم وغسّانا وعُجت على فينيقيا وكليكيّا كمستبر
وأذرعات وبلقاء وتدمُرَ في صحراء خالية كالبحر من شجر
اذ لم أجد غير امصارٍ مقلبةٍ ورسم ابنيةٍ تبكي على الزُمَر
وقفت أنعي خراب الملك من مُدُنٍ في الحصر والوصف يعيي المرء بالحَصَر

وهو ينزو ذلك الخراب الى سوء ادارة السلطان ورجال دولته ثم يقول بعد ابيات

لهفي ولهف بني الاحرار كلّهم على التساوي بانصافٍ مدى العُصُر

ومنها : حتى دخلت بلاد الروس ملتجئاً بالمستجار محبّ الله والبشر

ومن هنا يتقدم الى وصف ما وجده في روسيا من عدل وامن ويقابله بسوء الحال في تركيا تتولهُ المقابلة ويصبح من قلب متحسر[3]

وإن تذكرتُ اوطاني بكيت دماً من مهجةٍ طفحت جرياً بمنهمر

ومثل حسّون في النقمة على الادارة التركية وحب التخلص منها عدد من الادباء (وجلهم من مسيحيي سوريا ولبنان) وقد سبقت الاشارة الى احدهم سليم سركيس . وهو من الذين برزوا في هذا المضمار وله في ذلك كثير من القصائد والمقالات . منها قصيدة موضوعها « ثلاث حبّات » وضعها على لسان ارمني يموت جوعاً[4] وقصيدة نفير سوريا التي مطلعها[5]

يا أهل سوريا القساورْ من كل مفخورٍ وفاخرْ

---

(١) هكذا رواية المتنبي ولو استبدلنا الدوائر بالدوامي — لاستقام الوزن . (٢) المقتطف ٣٦ — ٢٥٨
(٣) راجع القصيدة في ديوانه الفنات ص ٧٤ (٤) راجعها في المشير ٥ ابريل ١٨٩٦ (٥) المشير ١١ مايو ١٨٩٥

افترضوك صفاوةً لم يرضها في الناس صاغرْ

وله قصيدة اخرى سرّ ذكرها في كلامنا على موقف السوريين من الدعاية العثمانية في مصر وهي شديدة الوطأة وكذلك اكثر شعره ونثره. ويكفي ان نقول انهُ صاحب جريدة المشير التي اشتهرت بعدائها للدولة العثمانية ولاسيما لسياسة عبد الحميد

والذي يراجع الجرائد الحرّة التي كانت في ذلك العهد تصدر خارج تركيا او في جوّ بعيد عن السيطرة التركية يجد ما لا يستطاع حصره هنا من نقثات الكتاب والشعراء الذين كانوا يحملون على عبد الحميد ويتاوثون سياسته. وقد كان لتلك النقثات تأثير ملموس في النفسية العربية بل هو الحميرة التي خمرتها وهيأتها للنهضة القومية التي تلت ذلك العهد

واذا كان السوريون واللبنانيون قد اضطروا قبل الدستور الى هجر تركيا، ولم يستطيعوا الجهر برغائبهم الا خارجها. فمن الانصاف ان نذكر هنا ان الشعر الاصلاحي في العراق كان عالي الصوت حتى في عُقر البلاد. وأبرز دعاته هناك اثنان — جميل الزهاوي ومعروف الرصافي. فلكليهما ما يستوقف النظر من الحملات العنيفة على سوء الادارة. ولقد يستغرب الانسان هذا العنف وصبر أولي الامر عليه دون عقاب عميت. ولكنهُ الواقع كما يتبين لمن يطالع قصائدهما القديمة وهما في عنفوان الشباب والقوة. فمن ذلك قصيدة للزهاوي قالها في الاستانة (حوالي سنة ١٨٩٧) وهي كما سترى من أشدّ ما هوجمت به ادارة ذلك العهد وقد كان عقابه النفي من الاستانة الى وطنه بغداد. ومطلعها

ألا فانتبه للأمر حتّام تغفل أما علمتك الحال ما كنتَ تجهلُ
أغِبتَ بلداً منها نشأتَ فقد غدتْ عليها عوادٍ للدمار تجوّلُ
ومنها — وما رابني الاّ غرارة فتيةٍ تؤمّل اصلاحاً ولا تتأمّلُ
تؤمل اصلاحاً وترجوا سعادةً ألا باطلٌ ما ترتجي وتؤمّلُ
وما هي الاّ دولةٌ عجيبةٌ تسوس بما يقضي هواها وتعملُ
فترفع بالاعزاز من كان جاهلاً وتخفض بالاذلال من كان يعقلُ
ومنها — لقد عبثت بالشعب اطماع ظالمٍ يحمّله من جوره ما يحمّلُ
فيا ويح قومٍ فوّضوا أمر نفسهم الى ملكٍ عن فعله ليس يسألُ

وهي طويلة وأكثرها على هذا النسق[1] ومثلها قصيدته « الصارخة » وهي مخمسة يصف فيها حكومة عبد الحميد ونشرها يومئذٍ في المقتطف[2] ومن نقثاته قوله من قصيدة يخاطب السلطان[3]

(١) راجع ديوانه (مصر ١٩٢٤) ٢٨٠ (٢) راجع ديوانه (مصر ١٩٢٤) ١٩٦ (٣) اللباب (له بغداد ٩٢٨ ص ١٤)

ان الرعيّة أغنامٌ يحُـــدُّ لهم ... ولاتك المستبدون الكاكبنـــا
يا عدلُ ان التفاتاً منك يسعدنا ... يا عدلُ ان ابتساماً منك يكفينا
ما جاءنا الشرُّ الاَّ من تهاونتا ... وعمَّنا الظلم الاَّ من تغاضينـــا
لا بدَّ من فكّ ما قد شدَّ من عُقَدٍ ... كفُّ الإمـــار بأيدينا بايدينا
إن الذين استحبّوا قتل انفسهم ... قوّاً من الضيم ما كانوا بجانينا

وقوله يصف حال وطنه

ألا رعى الله اوطاناً لنا انتُهكتْ ... محجوبة السهل والوديان والكُثُبِ
قد أضرم الجورُ ناراً في جوانبها ... واهلُها بين نفّاخٍ ومحتطبِ

وعلى هذا المنوال ينسج في كثير من شعره السياسي القديم، وكجرأته جرأة زميله الرصافي ولا سيما قبل ان يؤمَّ الاستانة ويشغل منصباً عليًّا فيها . ومن قصائده الجريئة مخمّس طويل موضوعه « ايقاظ الرقود » جاء فيه : —

حكومـة شعبنا جارت وصارت ... علينا تستبدُّ بما اشارت
فلا أحداً دعتهُ ولا استشارت ... وكلُّ حكومة ظلمت وجارت
فبشرها بتمزيق الجلود

اقول وليس بعض القول جدًّا ... لسلطان تحيَّر واستبدَّا
تعدى في الامور وما استعدَّا ... ألا يا أيها الملك المفدَّى
ومن لولاه لم تكُ في الوجود

أنِمْ عن أن تسوس الملك طرفا ... أقم ما تشتهي زَمَراً وعزفا
أطل نكر الرعية خلّ عُرفا ... مُم البلدان مهما شئت خسفا
وأرسل من تشاء الى اللحود

وتتجلى لنا هذه الجرأة ايضاً في قصيدته « رقية الصريع » التي مطلعها

يا عدلُ طال الانتظار فعجّل ... يا عدلُ ضاق الصبر عنك فأقبلِ

ومنها : كيف القرار على امور حكومةٍ ... حادتْ بهنَّ عن الطريق الامثلِ

ومن هنا يأخذ بوصف فساد الادارة واستبداد الخليفة منادياً بسقوط الحكومة الفردية ووجوب استبدالها بنظام جمهوري او دستوري . ثم يقول غير هيّاب

حتامَ نبقى لعبةً لحكومةٍ ... دامت تجرّعنا نقيع الحنظلِ
تنحو بنا طرق البوار تعسّفاً ... وتسومنا سوء العذاب الاهول
ما بالنا منها نخاف القتل إن ... قنا أما شئوت ان لم نقتل ؟

وفي ديوانه الاول المطبوع سنة ١٩١٠ كثير من هذه الحملات العنيفة نظم بعضها في العهد الاستبدادي وبعضها في عهد الدستور . وقد صدق محيي الدين الخياط اذ قال فيه[١] « من هؤلاء الافذاذ الذين فطروا على عدم الاستخذاء للضيم والتجافي عن مضاجع الذلّ وعدم الاستكانة للحوادث . وقد كان يقرع قومه في اشد ايام الاستبداد بمثل قوله :—

عجبت لقوم يخضعون لدولةٍ يسومهم في الموبقات عبيدها
وأعجب من ذا انهم يرهبونها وأموالها منهم ومنهم جنودها

وهذان البيتان من قصيدة موضوعها « تيه الشام » وهي خمسة وثلاثون بيتاً وكلها تنقد بمثل هذه النيران النفسية.

***

وقد كان في البلاد العربية العثمانية غير من ذكرنا من اصحاب الوجدان الحرّ والنزعة الثورية ولكنهم فلما كانوا يجرؤون على الجهر بما تكنهُ صدورهم لحرص قلم المراقبة ان لا ينشر في الصحف او الكتب الاّ ما يوافق مصلحة الحكومة ويشيد بذكر رجالها . فاجروا اقلامهم في غير الاصلاح السياسي وبلغوا في ذلك كما سنرى بعد شأواً يذكر

***

على انهُ لا بدّ لنا هنا من العودة الى ولي الدين يكن فقد اسلفنا انهُ كان من دعاة الجامعة العثمانية ومن أبناء الوطنية التركية . لكنهُ كان أيضاً من دعاة الاصلاح الناقمين على الدولة استبدادها وسوء ادارتها . وقد شرع بمهاجمة فسادها منذ كان في الاستانة . وفي ديوانه باب خاص بالسياسيات نجد فيه عدة شواهد على نزعته الحرة . وأولى وطنياته قصيدة « لشتاق حرية تؤيسنا »[٢] ومنها

يا وطناً قد جرى الفساد به متى يرينا اصلاحك الزمن
دُفنت حيًّا وما دنا أجلٌ ما ضرّ لو داقتوك قد دُفنوا
دماء أبنائك الكرام جرت بحراً فأشلاؤهم لها سفن

وكذلك قصيدته « الوطن يشكو أهله »[٣] جاء فيها :

في ذمة الله رجالٌ قضوا طال بهم تحت القبور الثواءْ
لا التاجُ ذاك التاج من بعدهم ولا بهاء الملك ذاك البهاءْ
يا أرض ميدي انها دولةٌ مادتْ وأنت اضطربي يا سماءْ

(١) مقدمة الديوان الاول ص ١١ (٢) رامج المشير ٨ يناير ١٨٩٨ (٣) في جريدة القانون الاساسي ١٨٩٨

ومنها — أقول والظلم بآفاته يحتث للملك مطايا الفناء
لا ييأس المكروب من فرجةٍ ولا عليل أبداً من شفاء

ومما يذكر له هنا قصيدته « زفرة من زفراتي » قالها عند ما نفي الى سيواس سنة ١٩٠٢

ومنها : ارى سيواس تُضدني كأني صارمٌ ذكرُ
صدأت بها واحسبني ساصدأ ما جرى العُمرُ
فوا لهفي على سمرٍ تولّى رعيه النُّمرُ
غدا في ارض مسبعةٍ جفاها البيت والشجرُ

ومنها : عداة الحقّ قد ربحوا واهل الحق قد خسروا
ونحن امامنا وطن نراه اليوم يُحتضرُ
فيا افق الشهب حزناً وجُدْ بالدمع يا مطرُ

﴿ الشرق الشرقية في الادب الحديث ﴾ ظهر لنا في العواطف الشعرية العربية السابقة لعهد الدستور مجريان رئيسيّان — المجرى العثماني (او الدعوة للعرش العثماني ورجاله) والمجرى الاصلاحي (او الحمل على ذلك العرش ودعاته) . وظهر لنا ايضاً ان للاخير فرعين فرع المتطرّفين الداعين الى هدم الكيان العثماني . وفرع المتعدلين القائلين بوجوب الانقلاب مع المحافظة على الجامعة العثمانية . والذي يلوح لنا ان هؤلاء هم الاكثرية بين الاصلاحيين وقد كان هدفهم تجديد السلطنة ورفع مستواها لتكون وطناً حرّاً خليقاً بأن يحبّ ويفاخر به . فالشرق والغرب عندهم لا يجتمعان ولا ينجي الشرقيين من براثن الاستعمار أو يحفظ كيانهم الشرقي إلاّ العرش العثماني اذا قام على اسس الحضارة الجديدة ومن الطبيعي ان يكون المسلمون عموماً أعطف على الدولة العثمانية وفيها خلافتهم ومجدهم . يدلك على ذلك ما اظهروه في الحروب التي خاضتها قبل الدستور وبعده كحرب روسيا سنة ١٨٧٨ والحرب اليونانية ١٨٩٧ وحرب طرابلس ١٩١١ وحرب البلقان ١٩١٣ . بل وفي الحروب التي لم تخضها ولم يكن لها فيها مصلحة مباشرة كحرب روسيا واليابان (١٩٠٤ — ١٩٠٥)

ففي هذه الحرب كان العالم الاسلامي العربي بجانب اليابان لا لسبب الاّ لان اليابان دولة شرقية ثم هي تحارب روسيا عدوّة تركيا التاريخية . وقد اثارت هذه الحرب من العواطف الشعرية في ادبنا ما لا يجوز لباحث الاغضاء عنهُ . فمن ذلك قصيدة مشهورة لحافظ ابرهيم مطلعها : « لا تلمْ كفّي اذا السيف نبا » وفيها يقول مادحاً امبراطور اليابان (المكادو) ووطنية شعبه

هكذا البكاءُ قد علَّمنا ان نرى الاوطان أمًّا وأبا
ملكٌ يكفيك منهُ انهُ أنهض الشرق فهزَّ المغربا

وكذلك قوله من قصيدة موضوعها « الانتقام آفة الشعب »

فنفضوا النوم وجدّوا للعلى فالعلى وقفٌ على من لم ينمْ
وانظروا اليابان في الشرق وقد ركزتْ أعلامها فوق الاممْ
حاربوا الجهلَ وكانوا قبلنا في دجى عمياته حتى انهزمْ
فاسألوا عنها الثريّا لا الثرى انها تختال ابراج الهممْ

وقولهُ من قصيدة « أساحةٌ للموت أم محشرُ » يشير الى ما نال الشرق من انتصار اليابان

تسوءنا الحربُ وان أصبحت تدعو رجال الشرق أن يفخروا
أنى على الشرقيّ حينٌ اذا ما ذكر الاجداد لا يذكرُ
حتى أعاد الصُّفر أيامهُ فانتصف الاسودُ والاحمرُ

ولعلَّ قائلاً يقول ان شعر حافظ في الحرب الروسية اليابانية بل شعر مصر عموماً انما هو لما في نفوسهم من العطف على الثمانية لا لنعرة شرقية تستفزّهم الى تحدّي الغربيين . فنقول ان اليابان كانت يومئذٍ حليفة بريطانيا . وفي الاشادة بمحامدها نوع من الدعاية لبريطانيا . ومع كل ذلك لم يمتنع حافظ وزملاؤه [1] وهم من محاربي النفوذ البريطاني في مصر عن ان يستملحوا لمواطفهم الشرقية ويظهروا عطفهم على دولة شرقية برغم ما يربطها من الصداقة بمحتلي مصر

واذا ألقينا نظرة على غير مصر وجدنا ان الشعراء حتى الاحرار الناقمين على تركيا يضربون على هذا الوتر الشرقي كما فعل الرصافي في قصيدته « معركة تسوشيما » [2] اذ قال

سعروها في البحر حرباً ضروساً تأكل المال نارها والنفوسا
يوم طوغو [3] دها بأسطوله الـ ـروسَ قتالاً وكان يوماً عبوسا
فغداها بوارجاً تملأ البحر وقاراً طوراً وطوراً بُوسا
فكسوهم من الهوان لبوساً وسقوهم من المنون كؤوسا
هكذا شيدوا بناء المعالي هكذا أحسنوا لها التأسيسا

(١) كمصطفى الرافعي واحمد نسيم
(٢) وهي معركة بحرية بين الاسطولين الروسي والياباني كانت نصراً باهراً لليابان
(٣) اميرال الاسطول الياباني

وللشاعر اللبناني امين ناصر الدين في الحرب الروسية اليابانية قصيدة [١] موضوعها « اليابان ومشوقته » جعل سداها ولحمتها شجاعة اليابان وحميتهم الوطنية وظفرهم الباهر ومن ذلك ما وضعهُ على لسان المجاهد الياباني : —

هجمنا على ميناء « أرثورَ » هجمةً ... تردّ ابن عام وهو بالخوف أشيبُ
بيضٍ بلوح النصر أيّان جرّدت ... وسمرٍ لها بين القلوب تقلّبُ
وكنا اذا انهلّ الرصاص كأننا ... من الغيد بالتفاح نرمى فنطربُ
وعدنا وهاتيك القلاع بأسرها ... مهدّمةٌ قد حلّ منها المركّبُ
وقائمنا في البحر كانت عجيبـــةً ... ولكنها في لجة البحر أعجبُ

وهنا يصف معركة تسوشيما وانتصار طوغو ثم يقول : —

ورجّعت الاقطار صوت انتصارنا ... ففي الشرق هزّاج وفي الغرب ندّبُ

وقد أصاب الشاعر فان الشرق الادنى العربي او قل الشمالي عرتهُ هزة وطنية عامة على أثر انتصار اليابان وقد رددها الادب العربي عدة سنين بعد تلك الحرب . وكان كلما أراد انهاض الامم الشرقية ذكرها باليابان ونهضتها كقول كاتب هذه السطور سنة ١٩١١ من قصيدة موضوعها الحياة الجديدة في الشرقين [٢]

معاذ الله ان نبقى نياما ... يحيط بنا الظلام ولا نلاما
أرى التيران تضطرم اضطراما ... وآسيًا تهبُّ من الهجود

وعجم المجد في اليابان يسطعْ ... تخر لهم كواكبهم [٣] وتخضعْ
أضاء على الملا الشرقيّ اجمعْ ... وأنهم جسمهم معنى الوجـود

***

ولو اردنا تعداد القصائد والمقالات التي اثارتها هذه الحرب او ذكرياتها لضاقت بنا الصفحات الكثيرة . وليس غرضنا من الاشارة اليها وضرب الأمثلة عليها الا اثبات حقيقة قد تضيع في مطاوي الايام ، او تذهب بذهاب الذين عرفوها بالاختبار وهي ان النهضة اليابانية التي بلغت اوجها في حرب ١٩٠٤ — ١٩٠٥ قد حركت عواطف الوطنيين في مصر والشام والعراق فظهر ذلك في ادبهم المنظوم والمنثور ، وكان من الاسباب المهدة لذلك الانتقاد الوطني

---

(١) راجعها في مدى الخاطر (١٩١٣) ص ٣٤ (٢) راجعها في المورد الصافي م ٣ ص ١٧٣
(٣) الضمير في كواكبهم يرجع الى الغربيين

الذي عقب اعلان الدستور العثماني فعزز الروح الشرقية في جميع الاقطار العربية

(عوامل اقليمية) بقي علينا في هذا المقام ان نوجّه النظر الى حوادث سياسية تركت في الادب صبغتها الخاصة . وهي كثيرة ومتفاوتة الاثر على ان اهمها اثنان وهما :

١ — حركة السنة الستين (١٨٦٠) في البلاد السورية وما عقبها من استقلال لبنان الداخلي . ولهذه الحركة في الادب العربي ظاهرتان كبيرتان — الاولى تأصيل الحزازات الدينية بين ابناء سوريا — تلك الحزازات التي كانت ولا تزال من اهم بواعث الشقاق في الشرق. والثانية انفصال لبنان عن السلطة العثمانية بكيان سياسي خاص مضمون من الدول العظمى فصار اللبناني يشعر بكرامته الذاتية ويتذوق حلاوة الاستقلال

وفي تينك الظاهرتين تكوّن في نفسه ذلك الشعور الاقليمي الذي وقف في سبيل الوحدة العربية كما سيجيء

ومن يراجع دواوين الادباء اللبنانيين في هذه الحقبة السنة الاخيرة يرى شيوع ذلك الشعور برغم جميع الوسائل التي كانت تستخدم لاضعافه . ولا ينكر ان بعض اللبنانيين قد اخذ بعد الحرب الكبرى ينزع نزعة وطنية عامة ، إما تحت اسم القومية السورية وإما تحت اسم الوحدة العربية ، ولكن الشعور القديم الموروث عن آبائهم والمستمد من استقلال لبنان بعد السنة الستين لا يزال قويًّا ، وسيظل الادب اللبناني مصطبغاً به مدة طويلة من الزمن

٢ — الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ . وهو من الحوادث الاقليمية الكبرى التي تكاد لخطورتها ان توضع في مصاف العوامل العامة . ولا نتعرض هنا للبحث في اسباب الاحتلال او النظر في مساوئه وحسناته فذلك من خصائص التاريخ . ولكننا نقرر ان هذا الاحتلال كان بعثاً لادب مصري عنيف ، وكان له صدى لا يزال يتردد في انحاء البلدان العربية

وبرغم تضارب الآراء فيه فاننا نرى ان اكثر الشعراء والخطباء في مصر كانوا ينظرون الى الاحتلال نظر العداء وينادون بالاستقلال والدستور . وقد ادى ذلك الى احياء الشعور الوطني فيها ثم الى تدرجها في مراتب الاستقلال حتى بلغت ما بلغته في هذا العهد

ولما كان هذا الادب المصري الوطني شديد الارتباط بما نشأ عنهُ بعد الدستور فسنتركه الآن على ان نعود اليه مفصلاً في مقام آخر

***

ومن هذه العوامل الاقليمية — حوادث ارمينية ، وحوران ، واليمن وكثير من حوادث العراق المحلية . ولما كانت غايتنا هنا وصف الاتجاهات العاطفية العامة فاننا نقف عند هذا الحدّ من الكلام على الشعر قبل الدستور تاركين العوامل المحلية لمن يجب التخصص فيها